فن المقامات في كتاب (رِيحَانَةُ الْكُتَّابِ وَنُجْعَةُ المُنْتَابِ) للسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)

الباحثة غفران جبار حمزة

أ.م.د. صلاح حسون جبار

جامعة القادسية- كلية الآداب

ghfranjbar44@gmail.com

الملخص

يعد فن المقامات من الفنون التراثية الأصيلة المتجذرة في الأدب العربي، ظهر في أواخر القرن الرابع نتيجة ظروف اجتماعية وثقافية وقد نافس هذا الفن مختلف الفنون الأدبية الأخرى من الخطابة والرسالة، بل احتضنتها واستوعبتها كلها؛ لما تمتاز به من مرونة، وهي إلى ذلك تضيف ألوناً من الأدب الرفيع، والتراكيب الفنية والصور الأخّاذة.

والمقامات طراز من النثر الفني، ظهر أولاً في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني ثم حذا الحريري حذوه فيه، وعن طريقها انتشر في شتى البيئات العربية، ومنها بيئة الأندلس، وقد عرف الأندلسيون المقامات عن طريق من رحلوا منهم إلى المشرق طلبا للعلم، فقد درسوا هذا اللون الجديد من الأدب في جملة مادرسوه من العلوم والفنون، ثم عادوا إلى بلادهم ناشريه بين مواطنيهم، وانتشرت المقامات بوجه خاص أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وفي أوائل عهد المرابطين بالأندلس ظهرت مقامات الحريري بالمشرق ثم لم تلبث أن انتشرت بالمغرب انتشاراً واسعا.

ولا تخرج موضوعات المقامة الأندلسية عن النقد الأدبي والسياسة والمدح والهجاء، والغزل، والمجون، ووصف البلدان، والرحلات، فقد بلغ أوجه في هذا العصر مع ابن العميد،وأبي بكر الخوارزمي، وأبي إسحاق الصابي، والصاحب بن عباد حتى أن التزويق أصبح غاية، وحتى أن الكتابة أصبحت مزيجاً من زخرف أنيق وموسيقى لفظية غنية، كما نزع الأدب إلى اللفظية والحرفية التي أغرقت المعنى الضئيل في بحر زاخر من الأسجاع والاستعارات وشتى ضروب البديع.

الكلمات المفتاحية : (المقامة، المقامة الأندلسية، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب)

The Art of Maqamat in the Book of Rehana Al-Kitab and Najat Al-Mantab by Lisan Al-Din Bit Al-Khatib T. 776

A.M.D. Salah Hayoun Jabbar
Researcher: Ghufran Jabbar Hamza
College of Arts/University of Qadisiyah
ghfranjbar44@gmail.com

Abstract

The Maqamat art is one of the authentic heritage arts rooted in Arabic literature. It appeared in the late fourth century as a result of social and cultural conditions. This art competed with the various other literary arts of rhetoric and message, but embraced and absorbed them all. Because of its flexibility, it adds to this a variety of fine literature, artistic compositions and captivating images.

It was known by the name, Environment of Andalusia, and it was known for the first time on the way of those of them who traveled to the East in search of knowledge. The days of the kings of the sects in Andalusia, during the era of the Almoravids, Al-Hariri's articles appeared in the East and then soon spread widely in Morocco.

Andalusian maqama topics do not depart from literary criticism, politics, praise, satire, flirtation, promiscuity, describing countries, and travels. It became a mixture of elegant decoration and rich verbal music, as well as literature tended to verbal and literal, which drowned the meager meaning in a sea full of rhymes, metaphors, and various kinds of adorable

توطئـــة :

يعتبر فن المقامات من الفنون التراثية الأصيلة المتجذرة في الأدب العربي، ظهر في أواخر القرن الرابع نتيجة ظروف اجتماعية وثقافية وقد نافس هذا الفن مختلف الفنون الأدبية الأخرى من الخطابة والرسالة، بل احتضنتها واستوعبتها كلها؛ لما تمتاز به من مرونة، وهي إلى ذلك تضيف ألوناً من الأدب الرفيع، والتراكيب الفنية والصور الأخّاذة.

والمقامة في اللغة: هي من المَقام موضع القدمينِ، والقيامُ نقيضُ الجلوسِ، قامَ يقومُ، قومَاً وقِياماً، وقامةً، والقَومةُ: المرّةُ الواحدةُ، والمَقام: الموضعُ الذي تقيمُ فيهِ، والمَقامةُ: الإقامةُ، والمُقامةُ بالضم: الإقامةُ والمَقامةُ بالفتح: المَجلِسُ والجماعةُ من الناسِ[1].

وقد وردت المقامة في معجم مصطلحات النقد العربي القديم بمعنى المجلس والجماعة من الناس، وقال القلقشندي:"المقامات: جمع مَقامة –بفتح الميم-وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس، وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها"[2].

أما في الاصطلاح فهي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو ملحة أو نادرة، كان الأدباء يتبارون في كتابتها إظهاراً لما يمتازون به من براعة لغوية وأدبية[3].

ويعرّفها الأستاذ فكتور ألكك:"المقامة حديث قصير من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجع تدور حول بطل أفاق أديب شحاذ ويحدث عنه وينشر طويته راوية جوالة قد يلبس جبة البطل أحيانا، وغرض المقامة البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام وموارده ومصادره في عظة بليغة تقلقل الدراهم في أكياسها"[4].

أما الدكتور رابح العوبي فعرّفها بأنها: "فن أدبي بأسلوب قصصي، يتخذ الجوار مطية إلى تحقيق أغراض تعليمية واجتماعية ونفسية" [5].

وعرفها ناظم رشيد بقوله: "وأصبحت المقامة فيما بعد مصطلحًا أدبيًا تطلق على نوع من الكتابة على شكل أقصوصة منمقة في ألفاظها وأسلوبها، فيها شيء من الحوار، وتعتمد في الغالب على راوٍ واحد وبطل أديب متحايل، يراد بها وصف أو مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو قضية علمية، وتنطوي على لون من ألوان النقد أو التهكم والسخرية أو التصحيح والتقويم أو الثورة ويعد بديع الزمان أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء"[6] ، ونلحظ على التعريف أعلاه لم يلمح إلى شعرية المقامات، بل يلمحُ ويركز على إنها من القصص أو من النثر الفني .

والمقامات طراز من النثر الفني، ظهر أولاً في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني ثم حذا الحريري حذوه فيه، وعن طريقها انتشر في شتى البيئات العربية، ومنها بيئة الأندلس[7]، وقد عرف الأندلسيون المقامات عن طريق من رحلوا منهم إلى المشرق طلبا للعلم، فقد درسوا هذا اللون الجديد من الأدب في جملة مادرسوه من العلوم والفنون، ثم عادوا إلى بلادهم ناشريه بين مواطنيهم، وانتشرت المقامات بوجه خاص أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وفي أوائل عهد المرابطين بالأندلس ظهرت مقامات الحريري بالمشرق ثم لم تلبث أن انتشرت بالمغرب انتشاراً واسعاً[8] .

ولا تخرج موضوعات المقامة الأندلسية عن النقد الأدبي والسياسة والمدح والهجاء، والغزل، والمجون، ووصف البلدان، والرحلات، فقد بلغ أوجه في هذا العصرمع ابن العميد،وأبي بكر الخوارزمي، وأبي إسحاق الصابي، والصاحب بن عباد حتى أن التزويق أصبح غاية، وحتى أن الكتابة أصبحت مزيجاً من زخرف أنيق وموسيقى لفظية غنية، كما نزع الأدب إلى اللفظية والحرفية التي أغرقت المعنى الضئيل في بحر زاخر من الأسجاع والاستعارات وشتى ضروب البديع[9].

*وتنقسم المقامات الأندلسية إلى نمطين:

أولا: نمط تقليدي:

من الموضوعات التي تناولتها المقامات الأندلسية التقليدية فقط ولم تعرفها مقامات الشرق، أهمها:(الحب العذري، ورثاء المدن، والرحلة البحرية)، ويتبع نموذج بديع الزمان الهمذاني في المشرق ومن أهم موضوعات المقامة التي اشتركت فيها مع المقامات المشرقية هي: المحافظة على البطل والراوي والعقدة،

والسخرية، والوصف، والبراعة اللغوية، والحيلة والكدية، والشعر، والأحكام النقدية[10]،ومن ذلك ما كتبه لسان الدين بن الخطيب لأبي الحجاج بن أبي الوليد إسماعيل أحد قادة الدولة النصرية، وهي مقامة في وصف رحلة فتح هذا القائد لأحد الجزر الأندلسية، وافتتحها بقوله: "نحمد الله حمد معترف بِحقِّهِ، ونشكره على عوائد فَضله ورفقه، الَّذِي جعل لنا الأَرْض ذلولا، نمشي فِي مناكبها، وَنَأْكُل من رزقه، وَنُصَلِّي على سيدنَا ومولانا مُحَمَّد خيرته من خَلفه، ونستوهب للمقام المولوي اليوسفي النصري، سَعْدا يتلألأ نور أفقه، ونصرا يُتْلَى، بغرب الْمَعْمُور وشرقه:

وقابلةُ صَفٍّ لي فديتُكِ رحْلَةً عُنيــتُ بهَــا يَــا شــقةَ الْقلــبِ مــنْ بعــدِ

فَقلـــتُ خُـــذيها مـــنْ لِسَـــانِ بلاغـــةٍ كَمَــا نُظــمَ الْيَــاقُوتُ والــدّرُّ فِــي عِقْــدِ

لما وَقع الْعَزْم الَّذِي وَقفه الله على مصَالح هَذِه الجزيرة، وَالْقَصْد المعرب عَن كريم القصيدة، وَفضل السريرة، على تفقد بلادها وأقطارها،وتمهيد أوطانها،وتيسيرأوطارها،رأى فِي قَلّدهُ الله أمورها، ووكل إِلَى حمايته ثغورها، مَوْلَانَا وعصمة ديننَا ودنيانا،أَمِير الْمُسلمين،وظل الله على الْعَالمين أَبُو الْحجَّاج،ابْن مَوْلَانَا أَمِير الْمُسلمين وكبيرالْمُلُوك الْمُجَاهدين الصَّالِحين أبي الْوَلِيد إِسْمَاعِيل، ابْن مَوْلَانَا الْهمام الْأَعْلَى، الَّذِي تروى مفاخره وتتلى،أبي سعيد، حفظ الله مِنْهُ على الْأَيَّام بَحر الندا،وَبدر المنتدا،...فَكَانَ البروز إِلَيْهَا يَوْم الْأَحَد سَابِع عشر شهر محرم فاتح عَام ثَمَانِيَة وَأَرْبَعينوَسَبْعمائة"[11].

في هذه المقدمة حدد الكاتب أركان مقامته إذ أنه حدد موضوع نصه هذا وهو وصف رحلتهم لفتح بعض بلاد الأندلس، والشخصية الرئيسة في النص هي أبو الحجاج بن أبي الوليد، وهو أحد سلاطين الدولة النصرية أما الزمان فهو السابع عشر من شهر محرم الحرام عام سبع مائة وثمان وأربعين للهجرة، وهو تقديم متعارف عليه في كتابة المقامات عند الحريري وغيره من كتاب المقامات المشارقة[12].

أما الأسلوب فهو يبتعد عن أسلوب بديع الزمان الهمذاني في الحوار[13] ويقترب من أسلوب الحريري الذي يأخذ أسلوب القصة[14]، استثمر الكاتب فيه التراث، فنجده يستشهد بالقرآن الكريم والشعر العربي: "واستقبلنا الْبَلدة حرسها الله فِي تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها وجمالها، نَادَى بِأَهْل الْمَدِينَة، مَوْعدكُمْ يَوْم الزِّينَة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحباتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها، فَرَأَيْنَا تزاحم الْكَوَاكِب بالمناكب، وتدافع البدور، بالصدور، بَيْضَاء كأسراب الْحمام، متنقبات،تنقب الأزهار بالكمايم، حَتَّى إِذا قضى الْقَوْم من سلامهم على إمَامهمْ فرضا، اسْتَوْفَيْنَا أعيانهم، تمييزا وعرضا، خيمنا بِبَعْض رباها المطلة"[15]، يوظف الكاتب القص القرآني ليؤكد على جلالة الحدث، فهو يصف دخول أبو الحجاج المدينة كدخول موسى للقاء فرعون، فتناص مع ذلك الحدث الزماني القرآني في قوله تعالى: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } [طه: 59].

وقد ختم مقامته هذه بقوله: "حَتَّى إِذا بلغنَا قُصُور الْملك، وانتهينا إِلَى وَاسِطَة السلك، وقفنا مهنئين ومسلمين، وَقُلْنَا ادخلوها بِسَلام آمِنين، وَأَلْقَتْ عصاها، واستقرت بهَا النَّوَى، كَمَا قر عينا بالإياب الْمُسَافِر"[16].

ومن هنا نلحظ أن ابن الخطيب قد اعتمد على الأسلوب القصصي في عرضه لمقاماته، كما وأنه في هذه المقامة أرد أن يبين حركة الجيش والمناطق التي مر بها وأحوال الناس وطباعهم، وهذا غرضها الرئيس.

ثانياً: نمط غير تقليدي

هذا النوع من المقامات أشبهما يكون برسالة تقدم لأمرما بين يدي شخص ذي نفوذ وسلطان على أمل نواله أو تحقيقه، وموضوعاتها: المدح، الهجاء، الغزل، الفخر، الحنين وغيرها[17] .

ومثال هذه المقامة عند ابن الخطيب هو ما صدر عن ابن الخطيب للسلطان ابي عنان فارس والتي افتتحها بكلمات تحتوي جميعها على حرف السين فقال[18]:

سقتْ ساریاتُ السّحبِ ساحةَ فاسِ سواحبُ، تكسو السَّرْحَ حسنَ لِبَاسِ

وسارتْ بتسليمي لسدّةِ فَارسٍ نسيمٌ سَرَى للسلسبيلِ بكاسِ

ومنها قوله: "باسم السَّلَام أستمنح مُسبل الإسعاد، وأبلس أنفس الحساد، وبإرسال التَّسْلِيم لسَيِّد الْمُرْسلين، أَسد أسراب الْفساد، وألتمس لسفري سَلامَة النُّفُوس والأجساد، سَلام وسيم، تستعير نفس مسراه الْبَسَاتِين، ويحسده الآس والياسمين، ويستمده النرجس السَّاجِي والنسرين، يسير لمجلس، مستخلف القدوس السَّلَام سُبْحَانَهُ، ويستبق لسدة سُلْطَان الْمُسلمين، سل السعد حسامه، وسدد سهامه، سيف السّنة السمحاء سَحَابَة سَمَاء السخا أَسد المراس، ملبس المفسدين لِبَاس الباس، ميسر الْحَسَنَة للنَّاس، يعسوب الْخَمِيس، مسرح سوائم التسجيع والتنسيم والتجنيس سَنَد السّنة، أَسد الأسنة، الباسل السَّيِّد السّني المسدد، السَّامِي السّني، سُلْطَان السلاطين، الساطي بأسه بالساطين، مُسْتَند الْإِسْلَام، فَارس، سدلت لسيرته الْحَسَنَة الملابس، واستنار بابتسام سعده المسري العابس"[19].

نلحظ أن جميع مفردات هذه المقامة احتوت على حرف السين، وهذا ما يظهر مكانة وعلمية وقدرة لسان ابن الدين الخطيب، فقد استطاع أن يكتب مقامة طويلة غرضها المدح مستعيناً بالكلمات التي تحتوي على حرف السين فقط، فلا نجد كلمة لا يوجد فيها حرف السين وحتى حروف الجر وأدوات الربط التي لا تحتوي على حرف السين لم يستعملها في نصه هذا إلا ما ندر، وما يؤكد قدرته وتمكنه من لغته أنه استمر في نفسه هذا حتى نهاية المقامة فأرخها بكلمات تحتوي على حرف السين فقال: "وبسين اسمكم سعيدة سنية، خلسة مجْلِس، ووسع مُفلس. وسمحكم مسئول، ومستعيذ سلطانكم أسعد رَسُول، نسل السَّلَام تقدس اسْمه، بتسنيم سعادتكم سرُور الْمُسلمين، ويسنى بسببكم سنة سيد الْمُرْسلين، ورسم تَاسِع مستفتح سنة سِتّ وَخمسين وَسَبْعمائة"[20]، وهذا وأن فيه تكلفاً كثيراً إلا أنه يدل على قدرة ابن الخطيب على تخيير ألفاظه، ففي هذا المقامة وأن كان الغرض المعلن منها مدح أبي عنان فارس بن علي حاكم مريني، إلا أنها "تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً، وإنما الأساس العرض الخارجي والحلية اللفظية"[21]، وهذا

ما حاول إبرازه لسان الدين بن الخطيب في مقامته هذه فقدكشف عن ثروة لفظية برهن عليها باستعمال الألفاظ الحاوية على حرف السين فقط.

ومن ذلك مقامته في المفاخرة بين مالقة* وسلا** ، التي سأله أحدهم عن فضلهما فيقول

فيها: "مالقة، أرفع قدرا، وَأشهر ذكرا، وَأجل شَأْنًا [واعز مَكَانا] وَأكْرم نَاسا، وَأبْعد التماسا، من أَن تفاخر أَو تطاول، أَو تعَارض أَو تصاول، أَو تراجع أَو تعادل، وَلَكِنِّي سأنتهى إِلَى غرضك، وَأبين ربع مغترضك، وأباين جوهرك وعرضك، فبقول الْأُمُور الَّتِي تتفاضل بهَا الْبلدَانِ، وتتفاخر مِنْهَا بِهِ الإخوان، وتعرفه حَتَّى الولائد والولدان، هِيَ المنعة والصنعة والبقعة والشنعة، والمساكن والحضارة، والعمارة والإثارة والنضارة"[22]، يحدد ابن الخطيب موضوع مقامته وهو المفاخرة بين مدينتين الأولى هي المدينة الأندلسية التي عاش فيها، والثانية المدينة المغربية التي نُفي إليها، فهو وإن كان لا يجد مجالا للمقارنة بين مالقة وسلا، إلا أنه استجابة للطلب سيبين أفضلية مالقة على سلا من مواضع عدة هي (المنعة،والصنعة، والبقعة، والشنعة، والمساكن، والحضارة، والعمارة، والإثارة، والنضارة)، وفي كل هذه المواضع تظهر أفضلية مالقة فيقول مثلا في المنعة: "فإمَّا المنعة، فلمالقة حرسها الله فضل الِارْتفَاع، ومزية الِامْتِنَاع، أما مقبثها فاقتعدت الْجَبَل كرسيا، ورفعها الله مَكَانا عليا بعد، أَن ضوعفت أسوارها وأقوارها، وسما بسنام الْجَبَل الْمُبَارك منارها، وقرت أبراجها وصوعدت أدراجها، وحصنت أَبْوَابهَا، وَحسن جنابها، وَدَار ببلدها السُّور والجسور، وَالْخَنْدَق المحفور فقلهراتها مداين بذاتها، وأبوابها المغشاة بالصفايح شاهدة بمهارة بناتها، وهمم أمرائها وولاتها، كَأَنَّهَا لبست الصَّباح سربالا"[23]، فيما يصف منعة سلا بقوله: "وسلا، كَمَا علمت، سور حقير وثور، إِلَى التنجيد والتشييد فَقير، إطام خاملة وللروم آملة، وقصبتها بِالْبَلَدِ مُتَّصِلَة [وَمن دَعْوَى الحصانة منتقلة] سورها مُفْرد، لَا سلوقية نقية، وبابها تقصد لَا سَاتِر تحميه وَالْمَاء بهَا مَعْدُوم وَلَيْسَ لَهُ جب مَعْلُوم، وَلَا بير بالعذوبة مَوْسُوم، وَفِي عهد قريب استباحتها الرّوم فِي الْيَوْم الشامس، وَلم ترد يَد لامس، من غير منجنيق نصب، وَلَا تَاج ملك عَلَيْهِ عصب، قلَّة سلَاح وَعدم فلاح، وخمول سور، واختلال أُمُور. وَقد سَقَطت دَعْوَى المنعة"[24].

ومن الواضح أن هذه المفاخرة بنيت على أساس المفاضلة التي تظهر تقدم المدينة الأولى على المدينة الثانية، في كل أمورها، فهي مقامة ذات موضوع واحد وان اختلفت طرق الاستدلال على أفضلية هذه المدينة على تلك. فهو يعتمد على أساليب إقناعية كما في قوله: (وسلا، كَمَا علمت) وكأنه يريد أن ينفي عن نفسه التحيز إلى مالقة، ويؤكد إن ما يصف به البلدين هو الحقيقة والواقع.

ومن هنا نجد أن لسان الدين بن الخطيب قد أبدع في كتابة المقامة كما أبدع في الفنون النثرية الأخرى فقد سار على نهج الكتاب القدماء وقلد أثارهم تارة وأبدع في أساليبه تارة أخرى .

ومن أبرز المقامات في كتاب ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب لابن الخطيب هي:

1- المقامة السلطانية :

وتتمثل بقوله: "فمن ذلك ما صدر عنى للسلطان الجليل المعظم الكبير أبي عنان فارس رحمه الله من سبتة بَين يَدي ركُوب الْبَحْر وَفِي كل كلمة مِنْهَا سين:

سقتْ ساریاتُ السّحبِ ساحةَ فاسِ سواحبُ، تكسو السَّرْحَ حسنَ لِبَاسِ

وسارتْ بتسليمي لسدّةِ فَارسٍ نسيمٌ سرى للسلسبيلِ بكاسِ

منها في ذكر السلطان أبي عنان :

أنسَتْ بمسرى سبتةٌ وتأنّسَتْ بساحتهِ نفسي وأسعدَ ناسِ

ويسّرَتْ لليُسرى ويسّرَ مرسلي وسدّدَ سهمي واستقامَ قياسِ"[25]

تتردد في النصوص الشِّعرية أعلاه أبيات كان مبعثها التأمل في تبدل أحوال الدول والأيام وجاءت الجناس البديعي: (أنست / تأنست/ ناس / يسرت / لليسرى/ ويسر) موحية معبرّةٍ أجمل تعبير عن لوحةٍ مكانية يقصدها الشاعر الخطيب بخياله.

ويقول في نص آخر:"باسم السلام أستمنح مسبل الإسعاد، وأبلس أنفس الحساد، وبإرسال التسليم لسيد المرسلين، أسد أسراب الفساد، وألتمس لسفري سلامة النفوس والأجساد، سلام وسيم، تستعير نفس مسراه البساتين، ويحسده الآس والياسمين، ويستمده النرجس الساجي والنسرين، مستخلف القدوس السلام سبحانه، ويستبق لسدة سلطان المسلمين"[26].

فالكاتب ابن الخطيب استحضر إلى ذهن المتلقي ليصف حال السلام والطمأنينة ويتحدث عن تفاصيلها، فجاءت الفنون البديعية موحية معبّرة أجمل تعبير حيث استطاع توضيح المعاني وإبرازها بقالبٍ فنّي جميل، حيث حركت النفوس واستثارت الخيالات، فاستعان بالجناس والاستعارات وحسن التقسيم ليوصل رسالته إلى من يريد السلام بأحسن طريقة.

ومن المقامات الأخرى لابن الخطيب منها: "سل السعد حسامه، وسدد سهامه، سيف السنة السمحاء سحابة سماء السخا أسد المراس، ملبس المفسدين لباس الباس، ميسر الحسنة للناس، يعسوب الخميس، مسرح سوائم التسجيع والتنسيم والتجنيس سند السنة، أسد الأسنة، الباسل السيد السني المسدد، السامي السني، سلطان السلاطين، الساطي بأسه بالساطين، مستند الإسلام، فارس، سدلت لسيرته الحسنة الملابس، واستنار بابتسام سعده المسري العابس، حسبك باسم ومسمى، ونفس نفيسة سكنت الإسلام جسما، وأسنت لسعادة المسلمين قسما، ينسى السحايب الساكنة لمسنتي السنين، وتخرس ألسن محاسنه اللسنين، ويستعبد إحسانه إحسان المحسنين، سما مجلسه، وسعد ملتمسه، وتسنت سلامته، وحرست سبل السنة استقامته، وسدد سهمه، وسنى السعادة للناس بأسه وسلمه، فسبحان ميسر العسير، ومسدي الكسير،ومسهل الإكسير، ومسنى سلطانه يستوعب محاسن السبعة المستخلفين، استيعاب التيسير، فسهلت المسالك العسيرة، وحسنت السيرة، ليستبين سر الاستخلاف، ويتيسر سبب الاستيلاف، ويستجد ملابس سلطنة الأسلاف، وسيطهر سيفه مساجد المسلمين بالأندلس، سالبا دنس الناقوس، ويلبس إبليس باستنقاذها، لباس البؤس، ويستفتح القدس، بتيسير القدوس، رسمه بسبته حرست ساحتها، واتسعت باليسر مساحتها، مسترق إحسانه، ومستعبد سلطانه السعيد السفارة والرسالة، بسببه، المتوسل بالوسائل الحسنة"[27] .

جاء الأسلوب في هذه المقامة على غير المقامات الأخرى، فأكثر المقامات الأخرى له قد امتزج بها الشعر مع النثر إلا هذه فقد جردها من الشعر وأخلاها للنثر فقط،فهو قد ملأ تلك المقامة بالقصص وأحيانا بالحكم والمواعظ، ويتبين لنا كذلك أسلوب جميل وممتع عند تأمل القارئ بها وتحليلها يحسُّ بحلاوتها، وإنَّ اللذة تأتي بعد التأمل والتفكير، حيث استطاع التعبير عن المعاني من خلال تجسيدها وجعلها محسوسة، حيث اقتربت تلك الصور البلاغية إلى الإفهام ، وأصبحت أكثر وضوحاً.

ومن ذلك أيضًا قوله: "فَقلت، بِي إِلَى تعرف الْبلدَانِ جنوح وجنون، وَالْجُنُون فنون، وَقد ظَفرت قبلك بنقاب، وعود احتقاب وبسارب نقاب، حصل بِهِ من طلى الشُّكْر، وَبِك يتم السطر ويعظم الْخطر، فَقَالَ النَّاس مُتَّهم ومنجد، وخاذل ومنجد، وَلَا تجود يَد بِمَا تَجِد، وَالله المرشد، وَجعل ينشد:

إِذا المشكلات تصدين لي ... كشفت غوامضها بِالنّظْرْ

وَلست بائقة فِـي الرِّجَـــال ... أسائل هَذَا وَذَا مَا الْخَبَرْ

ولكنني مدرب الأصفرين ... أبين مَعَ مَا مضى مَا غبَرْ

ثمَّ قَالَ: هَات، أَمن عقدك الشُّبُهَات، قلت: مَا تَقول فِي باديس، قَالَ، بدأت بحمدلة الرقعة، وبركة الْبقْعَة، ومدفن الْوَلِيّ، ومظهر النُّور الجلى، والنحر غير العاطل وَلَا الخلي من الحلى، بلد السراوة والشجاعة، والإيثار على فرض الْجَمَاعَة، والنفوس الأوابة إِلَى الله الرجاعة، حَيْثُ الْبر والحوت، والخشب الَّذِي ينشأ مِنْهَا كل منحوت، والبأس والإقدام، والفاكهة الطّيبَة والإدام، وَرب الْجبَال، وَفضل المدافعة لصب السبال، إِلَّا أَنَّهَا موحشة الْخَارِج وعرة المعارج مجاورة من غمارة بالمارد المارج، فهم ذُو دَبِيب فِي مدارج تِلْكَ الغرابيب، وكيدهم ببركة الشَّيْخ فِي تثبيت"[28].

يبدو أن لسان الدين ابن الخطيب قد أبدع في إنتاج نصوصه بمستوياتٍ عالية يتجلى فيها إبداعه الخاص، حيث كان مهتماً كثيراً بالبديع في شعره؛ ولذلك نراه يعتني به كل العناية في بعض الأحيان، من خلال إيراده الشواهد الشعرية والنثرية فقد وقع الجناس في:(الرقعة- البقعة)، و (الجلى- الحلى)، و (الجبال – السبال)، ولا شك أنه مما يدعم الموسيقى الدّاخلية للنص، لأنه ليس تكراراً محضاً للحروف بل نجد اختلافاً بين ألفاظه من حيث المعنى والدلالة.

2- مقامة معيار الاختيار:

لقد وصف أبن الخطيب في هذه المقامة أهم مدينتين هما: غرناطة والمغرب، حيث تناول فيه لسان الدين بن الخطيب النواحي التأريخية والجغرافية والاجتماعية لأغلب المدن التي ذكرها، حيث بدأ بجبل طارق الذي يقع ضمن مملكة بني مرين المغربية،إما المدن الأندلسية التي ذكرها في الوصف منها: (اسطبونة، مربلة، سهيل، مالقة، قمارش، المنكب، وغيرها من المدن)،وأما مدن المغرب التي ذكرها بالوصف كالأتي:(بادس، سبتة، طنجة، قصر كتامة، أصيلا، سلا، وغيرها من المدن) وابن الخطيب لم يراعِ المدن ترتيبًا تاريخيًا وجغرافيًا، بل حسب الأهمية[29].

ومن قول لسان الدين بن الخطيب في هذه المقامة: "الْحَمد لله الَّذِي انْفَرَدت صِفَاته بالاشتمال على أشتات الْكَمَال، والاستقلال بأعباء الْجلَال، المنزه عَن احتلال الْحَلَال، المتصفة الْخلال بالاختلال، الْمُتَعَمد بالسؤال، لصلة النوال، جَاعل الأَرْض كسكانها مُتَغَايِرَة الْأَحْوَال، باخْتلَاف الْعرُوض والأطوال، متصفة بالمحاسن والمقابح، عِنْد اعْتِبَار الهيئات والأوضاع والصنائع والأعمال، على التَّفْصِيل والإجمال، فَمن قَامَ خَيره بشره، دخل تَحت خطّ الِاعْتِدَال، وَمن قصر خَيره عَن شَره، كَانَ أَهلا للاستعاضة بِهِ والاستبدال، وَمن أربى خَيره على شَره، وَجب إِلَيْهِ شدّ الرّحال، وَالْتمس بِقَصْدِهِ صَلَاح الْحَال، وَكَثِيرًا مَا اغتبط النَّاس بأوطانهم، فحصلوا فِي الْجبَال على دعة البال، وفازوا فِي الرمال بالآمال، حِكْمَة مِنْهُ فِي اعْتِبَار ربع الشمَال، وتضيء أكنافه عَن الْيَمين وَالشمَال، إِلَى أَن يَدْعُو بِأَهْل الأَرْض، لموقف الْعرض وَالسُّؤَال. وَيذْهل عَن الأمل عظم الْأَهْوَال. وَالصَّلَاة على سيدنَا مُحَمَّد الْمُصْطَفى، الَّذِي أنقذ بدعوته الوارفة الظلال من الضلال، وجا بِرَفْع الأغلال، وتمييز الْحَرَام من الْحَلَال، وَالرِّضَا عَمَّن لَهُ من الصحب والآل"[30].

لقد تفنن ابن الخطيب في هذه النص المقامي التي هي قريبة من الخطبة أو الرسالة، فصور ما رأى حوله من روائع الذات الإلهية، فجاءت الصور الفنية البلاغية تجسيداً من الاستعارات والكنايات والأضداد والجناس بصورةٍ بلاغية جميلة وراقية في اختيار الألفاظ من غير إسهاب أو تقصير.

ومن ذلك قوله: "أما بعد، ساعدك السعد، ولان الْجَعْد، فَإِن الْإِنْسَان، وَإِن اتّصف بِالْإِحْسَانِ، وأبانة اللِّسَان، لما كَانَ بعضه لبَعض فَقِيرا، نبيها كَانَ أَو حَقِيرًا، إِذْ مونه الَّتِي تصلح بهَا حَاله، وَلَا يَسعهَا انتحاله، لزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يُؤمن مَعهَا اختلافه، واتخاذ مَدِينَة يقر بهَا قراره، وَيتَوَجَّهُ إِلَيْهَا ركونه وفراره، إِذا رابه إضراره، وتختزن فِيهَا أقواته الَّتِي بهَا حَيَاته. ويحاول مِنْهَا معاشه، الَّذِي بِهِ انتعاشه، وَإِن كَانَ اتخاذها جزَافا واتفاقا. واجتزاء بِبَعْض الْمرَافِق وارتفاقا،تحاول خَيرهَا وشرها، وتعارض نَفعهَا وضيرها، وفضلها فِي الْغَالِب غَيرهَا، وَإِن كَانَ عَن اخْتِيَار وتحكيم معيار، وتأسيس حَكِيم، وتعويض لِلْعَقْلِ وتحكيم، تنافر إِلَى حكمهَا للنفر، وإعمال السّفر، وَكَانَت مساويها بِالنِّسْبَةِ إِلَى محاسنها تفْتَقر، إِذْ وجود المَال فاضح للآمال، وَلله در الْقَائِل:

وَمن ذَا الَّذِي ترْضى سجاياه كلّهَا ... كفى الْمَرْءُ فضلاً أَنْ تعدَّ معايبَهْ

وبحسب ذَلِك، حدث من يعْنى بالأخبار ينقلها، وَالْحكم يصقلها، والأسمار بنتقيها، والْآثَار يخلدها ويبغيها، والمجالس يَأْخُذ صدورها، والآفاق يشيم شموسها وبدورها، وَالْحلَل يصرف دورها، وَيَأْكُل قدورها، والطرف يهديها، والخفيات يبينها، وَقد جرى ذكر تَفْضِيل الْبلدَانِ، وَذكر القاصي والدان، ومزايا الْأَمَاكِن، وخصائص الْمنَازل والمساكن، والمقابح والمحاسن، وَالطّيب والآسن، قَالَ ضمني اللَّيْل، وَقد سدل الْمَسِيح راهبه، وَأَشْهَب قرصة الشَّمْس من يَد الأمس ناهبه، وذلفت جيوشه الحبشية وكتائبه، وَفتحت الأزهار شط المجرة كواكبه، وجنحت الطُّيُور إِلَى وَكونهَا، وانتشرت الطوافات بعد سكونها، وعويت الذئاب فَوق هضابها، ولوحت البروق بفيض عضابها، وباحت الْكَفّ الخضيب بخضابها، وتسللت اللُّصُوص لانتهاز فرصها، وَخرجت الليوث إِلَى قسمهَا وحصصها فِي مناخ رحب المنطلق، وثيق الغلق، سامي السُّور، كَفِيل بِحِفْظ الميسور"[31].

مما نلاحظ من أسلوب ابن الخطيب في هذه المقامة سلاسة الأسلوب وبساطته والبعد عن الصنعة التكلفة التي أرهقت بعض ناثري عصره كما يلحظ أيضا تأثره بثقافته الدينية واهتمامه بالطريقة المنطقية حيث ترد بعض المصطلحات الدينية والشواهد الدينية وحيث يورد العلل والمقدمات والنتائج في كثير من المواضع.

ولقد استقى ابن الخطيب مصادر الهامه من النصِّ القرآني والحديث النبوي الشريف والشعر العربي ، بوصفها مصادر أدبية تخصب نصوصه المقامية ، وتمنح الخطاب النثري سمة التصديق والذي تظهر فيه الأبعاد الإنسانية ، وصاغها صياغةً بلاغية فنية ووظفها في نصّه واستدعى الأضداد والجناس والاستعارات وحسن التقسيم ليختبئ وراءها ويحمّلها دلالات بلاغية عميقة تكشف عن ألوان الانفعالات النفسيّة لديه.

ومن النصوص الأخرى لدى ابن الخطيب: "وأطل بأعلاه قصر، وأظله فتح من الله وَنصر، سَاوَى سُورَة الْبَحْر فأعياه، قد تهلل بالكلس محياه، واستقبل الثغر الْغَرِيب فحياه، واطرد صنع الله فِيهِ من عَدو يَكْفِيهِ، ولطف يخفيه، وداء عضال يشفيه، فَهُوَ خلْوَة الْعباد، ومقام العاكف والباد، ومسلحة من وَرَاءه من الْعباد، وشقة الْقُلُوب الْمسلمَة والأكباد. هَوَاهُ صَحِيح وثراه بالخزين سحيح، ونجر الرِّبَاط فِيهِ ربيح، وحماه لِلْمَالِ وَالْحرم غير مُبِيح، وَوَضعه الْحسن لَا يشان بتقبيح إِلَّا أَنه، وَالله يَقِيه مِمَّا يتقيه بعيد الأقطار، هماز بالقطار، كثير الرِّيَاح والأمطار، مكتنف بالرمل المخلف، والجوار الْمُتْلف قَلِيل الْمرَافِق، مَعْدُوم المشاكل والمرافق، هزل الكراع، لعدم الأزدراع، حاسر الذِّرَاع للقراع، مرتزق من ظلّ الشراع، كورة دبر ،ومعتكف أزلوصبر، وساكنه حَيّ فِي قبر:

هُوَ الْبَاب إِن كَانَ التزاور للقيا ... وغوث وغيث للضريح وللسقيا

فَإِن تطرق الْأَيَّام فِيهِ بحادث ... وأعزز بِهِ قُلْنَا السَّلَام على الدُّنْيَا

قلت: فأسطبونه، قَالَ: عَفا رسمها، وبقى اسْمهَا وَكَانَت مَظَنَّة النعم الغزيرة، قبل حَادِثَة الجزيرة. قلت: فمربلة، قَالَ: بلد التاذين على السرذين، وَمحل الدُّعَاء والتأمين لمطعم الْحُوت السمين، وحد ذَاتهَا مفرس الْعِنَب الْقَدِيم الْفرس إِلَى قبَّة أرين، إِلَّا أَن مرْسَاها غير أَمِين، وعقارها غير ثمين، ومعقلها تركبه الأَرْض من عَن شمال وَيَمِين، قلت: فسهيل قَالَ: حصن حُصَيْن، يضيق عَن مثله هِنْد وصين، وَيَقْضِي بفضله كل ذِي عقل رصين، سَبَب عزه متين، ومادة قوته شعير وتين، قد علم أَهله مشربهم، وأمنوا مهربهم، وأسهلت بَين يَدَيْهِ قراه ماثلة بِحَيْثُ يرَاهُ، وجاد بالسمك واديه، وبالحب ثراه، وَعرف شَأْنه بِأَرْض النّوبَة وَمِنْه يظْهر سُهَيْل من كواكب الْجنُوب، إِلَّا أَن سواحله فل الْغَارة البحرية، ومهبط السّريَّة غير السّريَّة، الخليقة بالحذر الْحُرِّيَّة، مسرح السايمة الأميرية، وخدامها كَمَا علمت أُولَئِكَ هم شَرّ الْبَرِيَّة"[32]، وهنا يتضح أسلوب ابن الخطيب الكتابي الفني بتوشيح نصه النثري المقامي بألوان بلاغية المتتابعة بالسجع والتكرار والتضاد والجناس وغير ذلك، ليجعل النص مونقاً بليغاً موئراً في نفس المتلقي وذوقه.

3- مقامة خطرة الطيفورحلة الشتاء والصيف

لقد وصفابن الخطيبفي هذه المقامة رحلة رسمية، رحل بها إلى غرناطة،لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة،الذي قام بها أمير المسلمين أبي الحجاج يوسفبن نصر ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب[33].

ومن هذه المقامات: "نحمد الله حمد معترف بِحقِّهِ، ونشكره على عوائد فَضله ورفقه، الَّذِي جعل لنا الأَرْض ذلولا، نمشي فِي مناكبها، وَنَأْكُل من رزقه، وَنُصَلِّي على سيدنَا ومولانا مُحَمَّد خيرته من خَلفه، ونستوهب للمقام المولوي اليوسفي النصري، سَعْدا يتلألأ نور أفقه، ونصرا يُتْلَى، بغرب الْمَعْمُور وشرقه:

وقابلة صف لي فديتك رحْلَة ... عنيت بهَا يَا شقة الْقلب من بعدِ

فَقلت خذيها من لِسَان بلاغة ... كَمَا نُظمَ الْيَاقُوتُ والدرُّ فِي عقدِ

لما وَقع الْعَزْم الَّذِي وَقفه الله على مصَالح هَذِه الجزيرة، وَالْقَصْد المعرب عَن كريم القصيدة، وَفضل السريرة، على تفقد بلادها وأقطارها، وتمهيد أوطانها، وتيسير أوطارها، رأى فِي قَلّدهُ الله أمورها، ووكل إِلَى حمايته ثغورها، مَوْلَانَا وعصمة ديننَا ودنيانا، أَمِير الْمُسلمين، وظل الله على الْعَالمين أَبُو الْحجَّاج، ابْن مَوْلَانَا أَمِير الْمُسلمين وكبير الْمُلُوك الْمُجَاهدين الصَّالِحين أبي الْوَلِيد إِسْمَاعِيل، ابْن مَوْلَانَا الْهمام الْأَعْلَى، الَّذِي تروى مفاخره وتتلى، أبي سعيد، حفظ الله مِنْهُ على الْأَيَّام بَحر الندا، وَبدر المنتدا، وسابق الْفَخر الْبعيد المدا، وشمله برواق عصمته، كلما رَاح واغتدا، أَن يُبَاشِرهَا بِنَفسِهِ، وَيجْعَل آفاقها مظلة شمسه، نظرا لِلْإِسْلَامِ وقياما بِحقِّهِ، وَعَملا على مَا يقربهُ مِمَّن اسْتَخْلَفَهُ على خَلفه، فِي وجهة حالفها الْغَمَام المستجم، ونصبة قضى لَهَا بالسعد من لَا ينجم، فَكَانَ البروز إِلَيْهَا يَوْم الْأَحَد سَابِع عشر شهر محرم فاتح عَام ثَمَانِيَة وَأَرْبَعين وَسَبْعمائة، خرجنَا وصفحة الْأُفق بالغيم متنفسة، وأدمع السحب لوداعنا منسكبة، نتبع من الرَّايَة الْحَمْرَاء دَلِيلا هاديا، ونثق بوعد الله سُبْحَانَهُ فِي قَوْله، وَلَا يقطعون وَادياً"[34].

يُقدِّم لسان الدين ابن الخطيب نصّه المقامي بصورةٍ لافتة مميّزة ، حيث يبدأ بحمد الله تعالى وشكره وفضله ونعمائه، ويسرد فيها أحداث الرحلة مثل : (فكان البروز إليها يوم الأحد سابع عشر.../ خرجنا وصفحة الأفق بالغيم متنفسه/ وأدمع السحب لوداعنا منسكبة..)، ومحاولة تقلبهم أثناء الرحلة بسعةِ صدر من خلال مقولتهم التي استغلوا فيها التورية وخداعها الفني : (تتبع من الراية الحمراء دليلاً هاديا..) ، ونلحظ في النصِّ أيضاً أنه يذكر الجناس الغير تام كما في : (أوطانها – أوطارها) ، (هاديا– وادياً) ، (ديننا – دنيانا) ، وكذلك التضاد: (غربه– شرقه) ، والتناص مع القرآن الكريم مثل : (الَّذِي جعل لنا الأَرْض ذلولا، نمشي فِي مناكبها، وَنَأْكُل من رزقه) ، ومدى الاعجاب بالوداع فيقول : (وأدمع السحب لوداعنا منسكبة..) ،فاللغة في مقامة خطرة الطيف لغة سهلة وسلسة تكثر فيها الفنون البديعية، والصور المجازية التي تشكلت تشكلاً دقيقاً وبديعاً وفريداً.

وكذلك النص التالي قول ابن الخطيب: "وَلما ابتسم ثغر الصَّباح، وبشرت بمقدمه نسمات الرِّيَاح، ألفينا عمل السراج إِلَى الإسراج، وشرعنا فِي السّير الدائب، وصرفنا إِلَى وَادي أنس صروف الركائب، واجتزنا بوادي حمتها، وَقد متع النَّهَار، وتأرجت الأزهار، فشاهدنا بِهِ معالم الْأَعْلَام، وحيينا دَار حمدة بِالسَّلَامِ، وتذاكرنا عمَارَة نواديها، وتناشدنا قَوْلهَا فِي واديها:

أَبَاحَ الشــوقُ أسراري بــوادي ... لَهُ فِي الْحســنِ آثَارٌ بوادي

فَمن وَادٍ يطوفُ بِكُلِّ روْضٍ ... وَمن روضٍ يطوفُ بِكُلِّ وَادي

وَمن بَين الظبي مهاةٌأصابتْ ... قلبِـــي وَقد ملكـــت فُـــؤَادِي

لَهَا لحْـــظٌ ترقّدهُ لأمـــــــــرٍ ... وَذَاكَ الْأَمرُ يَمْنعُنِي رقـــــادي

واستقبلنا الْبَلدة حرسها الله فِي تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها وجمالها، نَادَى بِأَهْل الْمَدِينَة، مَوْعدكُمْ يَوْم الزِّينَة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحباتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها، فَرَأَيْنَا تزاحم الْكَوَاكِب بالمناكب، وتدافع البدور، بالصدور، بَيْضَاء كأسراب الْحمام، متنقبات، تنقب الأزهار بالكمايم، حَتَّى إِذا قضى الْقَوْم من سلامهم على إِمَامهمْ فرضا، اسْتَوْفَيْنَا أعيانهم، تمييزا وعرضا، خيمنا بِبَعْض رباها المطلة، وسرحنا الْعُيُون فِي تِلْكَ العمالة المغلة، والزروع المستغلة، فحياها الله من بَلْدَة أنيقة الساحة، رحبة المساحة"[35].

وفي هذا الموضع يصوّر لنا لسان الدين ابن الخطيب في رحلة الذهاب كيفية استقبالهم والاحتفاء بهم:(واستقبلنا البلدة حرسها الله ...)، ونجد كذلك تداخل الأبيات الشعرية مع نص المقامة وهو ما يكثف بنية النص مازجاً بين إبداعه وإبداع الشعراء وليضيف للنصّ رونقاً ومتعة فنيَّة، ويضيئ لنا النمط الذي سوف تؤطر فيه فيدخلها في الرحلة الأدبية الوصفية؛ حيث نجد أن النص يتسم بالإيجاز والتكثيف والتلميح، الذي أغنى عن سرد الكثير من الأحداث سواء كانت أحداث تتصل بالرحلة أو ما تستدعيه من ذكريات وتراكيب جديدة.

وبلحاظ ذلك نجد أن ابن الخطيب يركز على زوايا مهمة التقطها وشدت انتباهه ورصدها أثناء الرحلة: (فحياها الله من بلدةٍ أنيقة الساحة، رحبة المساحة/خيمنا ببعض رباها المطلة..)، وكذلك استدعاؤه للمحسنات البديعية والتشبيهات والاستعارات في النص ، وكذلك الأبعاد الفكرية والمعرفية والشحنات الشعورية والعاطفية في نصّه الرحلي/المقامي واشارات خفيّة لتكسب النص عمقاً فنياً .

ومنها قوله: "وارتحلنا وَقد أذن الله للسماء فأصحت، وللغيوم فسحت، وللريح فَلَانَتْ بعد مَا ألحت، وساعد التَّيْسِير، وَكَانَ على طَرِيق قنالش الْمسير، كبرى بناتها، وشبيهتها فِي جداولها وجناتها، مَا شِئْت من أدواح توشحت بِالنورِ وتنوجت، وغدران زرع هبت عَلَيْهَا الصِّبَا فتموجت، سفربها الشَّقِيق الأرجواني. عَن خدود الغواني، فأجلنا الْعُيُون فِي رياض، وتذكرنا قَول القَاضِي عِيَاض:

انْظُرْ إِلَى الزَّرْعِ وخاماتهِ يحْكى ... وَقد مَاسَ أَمَام الرِّيَاحِ

كتيبتُهُ خضرًا مهزومةً شقائقُ ... النُّعْمَـــــانِ فِيهَا جراح

مثل أَهله فَسَلمُوا، وَمن عدم النُّزُول بهم تألموا، وأتينا فحص الْأَبْصَار فتجددت لَهُ ملابس المجادة، وتذكر عهود من حل بِهِ عِنْد الْفَتْح الأول من السَّادة، لما خَفَقت بِهِ راية سعد بن عبَادَة"[36] .

يعمد ابن الخطيب هنا إلى إضفاء شيء من الرموز والشخصيات: (القاضي عيّاض / سعد بن عبادة)، ويسرد أحداثاً ارتبطت بهم ، فابن الخطيب عاش تجربة الرحلة وذاق نفحاتها، فيذكر موقف الارتحال: (وارتحلنا وقد أذن الله للسماء فأصحت..)، ولقد حفل النص بالرؤى الفنية المميزة من الفنون البديعية ممثلة لما كانت تجيش في نفسه.

4- مقامة الإشارة إلى أدب بالوزارة:

لقد ذُكرت لفظة الوزارة في كتب اللغة وتسمى أوزاراً، ما يحمله من أثقال، وفِعلها(وزرَ) والمضارع منه(يزرُ)، والوَزر بفتح الواووالزاي، وهو مصدر لوِزْر ،أي الملجأ، كما يأتي بمعنى الجبل، وكل مانع أو ستار ما يحتمي به[37] ،

وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم كقولهتعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾[الفرقان: 35]، أي أرسلَه اللهُ إلى فرعونَ وقومِه، وقوله تعالى: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي**﴾[طه: 29]، أي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًايؤازرني على المضي إلى فرعون ويعاضدني عليه.

وقد جاء في كتاب الإشارةإلى أدب الوزارة:"الوزيروسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون في طبعه شَطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة"[38]

ومن قول لسان الدين بن الخطيب في هذه المقامة: "اعْلَم يَا وَلَدي أَن هَذِه الرُّتْبَة لمن فهم وعقل، مُشْتَقَّة من الْوَزير، وَهُوَ الثّقل، لِأَنَّهَا تحمل من عبء الْملك وَثقله مَا تعجز الْجبَال عَن حمله، وَهِي الْآلَة الَّتِي بهَا يعْمل، وبحسب تباينها يتباين مِنْهَا الأنقص والأكمل، وَعَصَاهُ الَّتِي بهَا يهش، ويحتطب ويحش، ويلتقم ويمش، وَيجمع ويفش، ومخلبه الَّذِي بِهِ يزق الفرخ، ويحرس العش ومنجله الَّذِي يعرف بِهِ من يناصح وَمن يغش، ومرآته الَّتِي يرى بهَا محَاسِن وَجهه وعيوبه، وسَمعه الَّذِي يتَوَصَّل بحاسته لمعْرِفَة الْأَشْخَاص المحجوبة. وَإِذا فسد الْملك وَصلح الْوَزير، رُبمَا نَفَعت السياسة واستقام التَّدْبِير، وَصَلَاح الْأَمر بعكس هَذِه الْحَال مَحْسُوب من الْمحَال لِأَن الْوَاسِطَة الْقَرِيبَة، ونكتة السياسة الغريبة، وموقعه من الْملك موقع الْيَدَيْنِ من الْجَسَد، اللَّتَيْنِ فِي الْقَبْض والبسط عَلَيْهِمَا يعْتَمد وَقَالُوا الْملك طَبِيب والرعية مرضى،والوزير تعرض عَلَيْهِ شكاياتهم عرضا والنجاح مُرْتَبِط بسداد عقله، وَصِحَّة نَقله، فان اخْتَلَّ السفير بَطل التَّدْبِير. وَإِذا تقرر وجوب الْإِمَامَة ونصبها، وعقدها وعصبها، وَكَانَت ضرورتها إِلَى الوزارة هَذِه هِيَ، ومنزلتها هَذِه الصُّورَة، وَفِي الْوَاجِب شَرط، وَلَا يَسْتَقِيم لَهُ بغَيْرهَا ضبط، كَيفَ لَا يكون قدرهَا خطيرا، ومحلها أثيرا، وَقَول النَّبِي (صلى الله عَلَيْهِ وآله وَسلم) الَّذِي اصطفاه برسالته وبكلامه، واختصه بخصيصتي الْكَرَامَة مَعَ كَونه مَعْصُوما بعصمة ربه، غَنِيا بدفاعه، متأنسا بِقُرْبِهِ، وَاجعَل لي وزيرا من أَهلِي هَارُون أخي، اشْدُد بِهِ أزري، وأشركه فِي أَمْرِي، دَلِيل على محلهَا من سد الْقَوَاعِد، وإجراء العوايد، وَإِقَامَة الشواهد، واستدرار الفوايد، ومدافعة المكايد، إِلَى غير ذَلِك من الْآثَار المجلوة، والمحاسن المتلوة، والإشعار بِأَن المنصب منصب الْأُخوة "[39].

ابن الخطيب في هذا النص استلهم قصة النبي موسى(ع) وكيف أنه شدّ أزره بأخيه هارون واستئناسه به لتصوير المعاناة في صراعه مع القوم الكافرين: (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ..) ، و(عصاه التي يهشُّ بها) ، إشارةً إلى توظيف الوضع لصاحب الوزارة بصورةٍ استدعائية تقوم على امتصاص الملفوظ النثري الغائب عبر مدلولات إيحائية بطريقةٍ إبداعية لتخصيب نصّه المقامي، فنجد ابن الخطيب قد تفنن في وصف صاحب الوزارة حيث تأتي الحكمة والتدبير في تجربة الحكم ومقاليد الوزارة والتعامل العادل مع

الرعية؛ كما تكشف عن توظيف البيان والبديع من استعارة وتشبيه وكناية وتورية وجناس وتضاد والفقرات المتساوية المتحدة الأحرف أو المختلفة.

ومن ذلك أيضاً قوله: "وَكَانَ الوزرا يختارون من الْجَوَارِي للمباضعة، من ظهر مِنْهَا فضل التَّمْيِيز، وأخلصها الِاخْتِيَار خلوص الذَّهَب الإبريز، وَلَا يغشوهن فِي سكر مسْقط، وَلَا فَرح مفرط، وَلَا كسل مقْعد، وَلَا حزب مُفسد، وَلَا غضب مبرق موعد. وَإِذا هم بِطَلَب الْوَلَد، استفتى الكاهن فِي اخْتِيَار الْوَقْت الرامق، فَلَا يُطلق لَهُ ذَلِك إِلَّا فِي الْأَوْقَات المختارة، وَالنّصب الخليقة بِتِلْكَ الإنارة، وَبعده إصْلَاح الْقَمَر وَالشَّمْس، وَالْكَوَاكِب الْخمس، واستحضار الهيئات النابهة، والأشكال المتنافسة المتشابهة، وتقريب القرابين بَين يَدي الْآلِهَة، ثمَّ يلقى الْجَارِيَة، وَكِلَاهُمَا يَقُول قولا مَنْقُولًا عَن الصُّحُف الموصوفة، والكتب المقدسة الْمَعْرُوفَة، مَعْنَاهُ يَا من قصرت الْأَلْبَاب عَن كنهه، وعنت الْوُجُوه لوجهه، قد اجْتَمَعنَا على مزج مواد لَا نَعْرِف مَا تحدثه مِنْهَا، وَلَا مَا تظهره عَنْهَا وتلقينا، وتلقينا توفيقك من سعينا بِمِقْدَار المجهود، وَأَنت ملاذ الْوُجُوه، ومفيض السُّجُود، وَلَيْسَ تضرعنا لَك بِالْمَسْأَلَة، وابتهالنا فِي رحمتك المستنزلة تَنْبِيها لأقدارك الْمُصِيبَة للسداد، الْجَارِيَة بمصالح الْعباد، إِنَّمَا هُوَ بِحَسب مَا نحرز بِهِ فضل الرَّغْبَة إِلَيْك، وَالسُّؤَال لما لديك، وَنحن بِحسن اختيارك أوفق منا بارائنا، وقضاؤك السَّابِق من وَرَائِنَا، فلك الْحَمد على قضائك، وَالشُّكْر على نعمائك"[40].

في النص المقامي السابق نرى كيف يوضح ابن الخطيب بعض تفصيلات اختيار الجواري ، وابتدأ بقوله: (وكان الوزرا يختارون من الجواري للمباضعة..) ، فقد أضفى على المشهد صوراً متتالية تصف المشهد الطبيعي لحال الوزراء وحياتهم الخاصة ، وكيفية حمل الجواري لغرض انتاج الاولاد في طرقٍ وطقوس خاصة :(تقريب القرابين بين يدي الآلهة / ثم يلقى الجارية ..) ، حيث استطاع توضيح بعض المعاني وابرازها بقالبٍ فني جميل، حيث حركت النفوس واستثارت الخيالات، ليتأمل القارئ في تلك الصور ويحللها ويحسُّ بحلاوتها.

ومن ذلك أيضًا: "وَكَانَ الْوَزِير فيهم، يشْتَرط فِيهِ أَن يكون قديم النِّعْمَة، بعيد الهمة، مكين الرأفة وَالرَّحْمَة، كريم الْعَيْب، نقي الجيب، مُسَدّد السهْم، ثاقب الْفَهم، واثبا عِنْد الفرصة، واصفا للقصة، مريحا فِي القصة، موفور الْأَمَانَة، أصيل الدّيانَة، قاهر للهوى، مستشعرا للتقوى، مشمرا عَن الساعد الْأَقْوَى، جليل الْقدر، رحيب الصَّدْر، مَشْهُور الْعِفَّة، معتدل الكفة، حذرا من النَّقْد، صَحِيح العقد، رَاعيا للهمل، نشطا للْعَمَل. واصلا للذمم، شاكرا للنعم، خَبِيرا بسر الْأُمَم، ذَا حنكة بالدخل والخرج، عفيف اللِّسَان والفرج، غير مغتاب وَلَا غيابة، وَلَا ملق وَلَا هيابة، مجتزئا بالبلاغ، مشتغلا عِنْد الْفَرَاغ، مؤثرا للصدق، صادعا بِالْحَقِّ، حَافِظًا للأسرار، مؤثرا للأبرار، مباينا بطبعه لخلق الأشرار، وَقد فاق قدر هَذِه الرُّتْبَة بَين الأقران، وَأعْطى وزانها، وَالْحَمْد لله، حَقه عِنْد الِاعْتِبَار"[41].

ومن خلال استقرائنا لنص المقامة نجد أن ابن الخطيب أتى ببعض الصور الكنائية لوصف شخصية الوزير تتناسب مع حسن العقل والحكمة، وقد وظف الاستعارات والجناس والتضاد وغيرها من المحسنات اللفظية والمعنوية : (قديم النعمة / بعيد الهمة / كريم العيب / نقي الجيب / مشهور العفة / معتدل الكفة /

حافظاً للأسرار / مؤثراً للأبرار..) ، ولا شك أنه مما يدعم الموسيقى الداخلية في النص ، لتكون تحفة فنية بديعة.

وكذلك قوله: "وَإِذا انصرفت إِلَيْك من إِحْدَى حرمه، رَغْبَة، أَو تأكدت فِي مُهِمّ قربه، أَو بدرت إِلَيْك شَفَاعَة أَو تَوَجَّهت فِي حَاجَة طَاعَة، فَلَا تسمع رسالتها، وَلَا تعْتَبر مقالتها، إِلَّا من لِسَان إِنْسَان مَوْصُوف عِنْد الْملك بِإِحْسَان، حَال من يقنه بمَكَان، وَاحْترز فِي محاورتها من فلتات اللِّسَان وهفواته، وراجع خطابها مُرَاجعَة الْأَخ إِلَى أكْرم أخواته، أَو الابن الإبر أمهاته. وَلَا تصغ فِي مخاطبتها إِلَى خضوع كَلَام ورقة، تَحِيَّة وَسَلام، وانفر من ذَلِك نفرتك من السمُوم الوحية والمهالك الردية، وأسدل دون الْوَلَد وَالْحرم جنَاح التقية، واكتم سره عَن أَبنَاء جنسك لَا بل عَن نَفسك وَاجعَل قَلْبك لَهُ قبرا، وأوسعه صِيَانة وصبرا فَإِن تزاحم عَلَيْك تزاحما تخَاف عَلَيْهِ معرة النسْيَان وإغفال ذكرهَا على الأحيان، فَاتخذ لَهَا رمزا يفردك بعلمها، وَلَا تبح لسواك شَيْئا من حكمهَا، وَلَا تغفل مَعَ الأحيان مَا جرى بِهِ رسمك من عرض كتاب وَارِد، أَو خبر وَافد، أَو بريد قَاصد واستأمره فِيمَا جرت بِهِ العوايد، وَإِن خصت لَدَيْهِ منزلتك، ولطفت مِنْهُ، محلتك، فَلَا تتْرك أَن يمر ذَلِك على سَمعه، معتنيا لرعيه، وأذقه حلاوة الاستبداد بأَمْره وَنَهْيه، واترك لَهُ منفذا] يحْتَج لَهُ بَابه [عِنْد مغيبك، كَمَا تحببه الْعدْل من نصيبك ولازم سدته مَعَ الأحيان .

وَإِيَّاك أَن تَجْتَمِع مَعَه على فرَاغ، فَيبقى الْملك مضيعا بِمِقْدَار ذَلِك الزَّمَان، وَإِذا انصرفت إِلَى منزلتك، فاختل بعمالك وكتابك، وَذَوي الرَّأْي والنصيحة من أَصْحَابك، على إحكام حَال الْملك الَّذِي ناطها بك، فَإِذا أمسيت، فاشغل طايفة من ليلك بمدارسة شَيْء من حكم الدّين، وأخبار الْفُضَلَاء المهتدين، واجل صدا نَفسك بالبراهين، ومجالسة الْعلمَاء وَالصَّالِحِينَ، وَاخْتِمْ سعيك بِبَعْض صحف النَّبِيين، وأدعية الْمُرْسلين والمتألهين لتختم يَوْمك بِالطَّهَارَةِ والعفة، والحلم والرأفة واعتدال الكفة، وليهون عَلَيْك النصب والوصب، والعمر المغتصب، إِنَّك مهتد بِهَدي رَبك الَّذِي يرعاك وينجح مسعاك، ويثيبك على مَا إِلَيْهِ دعَاك"[42].

برع لسان الدين ابن الخطيب في النص في توظيف المعاني الإنسانية للنصح والإرشاد ، وما يخص الأسرة الحاكمة وما يتوجب عليها في إسداء النصح والتعامل بإيجابية وحسن تصرف مع الرعية والحاشية، ومن ذلك: (واجل صدا نفسك بالبراهين / ومجالسة العلماء والصالحين..) وهو ما يدلُّ على ثقافته الواسعة ومخزونه الغزير ، والتمكن اللغوي ، وتراص البناء، ويستعمل أسلوب التصور والتخيّل والفنون البديعية التي تغلغلت في نصّه المقامي، لتخدم موقفه الشعوري والفنّي معاً.

([1]) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة(قومَ)، دار صادر بيروت، لبنان،1997م: 345/5.

([2]) معجم مصطلحات النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان الناشرون، بيروت، ط1، 2001م: 396.

([3]) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس وآخرون، مكتبة لبنان ساحة الصلح، بيروت، ط2، 1984م: 379 .

([4]) بديعيات الزمان، فيكتور الكك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط: 25.

([5]) المقامة البغدادية، د.رابح العوبي، دار الكتاب الثقافي،د.ط،د.ت، (المقدمة) :7 .

([6]) الأدب العربي في العصر العباسي: 327، وأدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع ، بحث الدكتور صفاء خلوصي، مجلة المعلم الجديد – العدد الأول،مج 25، كانون الثاني، شباط، 1962.

([7]) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، السعادة الكبرى، مصر، ج1، ط2، 1957م: 202-203.

([8]) ينظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار النهضة بمصر، القاهرة، د.ط: 224.

([9]) ينظر: الجامع في تاريخالأدب العربي، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م: 616-617.

([10]) ينظر: المقامات الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين، شاهر عوض الكفاوين، مكة المكرمة، جامعة الملك عبد العزيز، رسالة ماجستير، 2007م: 135وما بعدها.

([11]) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب : 2/ 248- 249.

([12]) ينظر : المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي (الحريري والحميدي خصوصا) ، د. فرح ناز علي، دار الكتب العلمية، ط1، 2011: 153.

([13]) ينظر: المصدر نفسه : 32.

([14]) ينظر: المصدر نفسه: 64.

([15]) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: 2/ 250.

([16]) المصدر نفسه: 2/ 264.

([17]) ينظر: المصدر نفسه:2/ 149-150.

([18]) ينظر: المصدر نفسه:246/2.

([19]) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب : 2/ 246.

([20]) المصدر نفسه: 2/ 247.

([21])المقامة ، شوقي ضيف وآخرون، دار المعارف ، مصر، ط3: 9.

*مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، قال الحميدي:هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها أي الرستاق، ينظر:معجم البلدان:43/5.

**مدينة متوسطة موضوعة على زاوية من الأرض قد حاذاها البحر والنهر، فالبحر شماليها والنهر غربيها جار من الجنوب وفيه نهر كبير تجري فيه السفن أقرب منه إلى البحر، وفي غربي هذا النهر اختط عبد المؤمن مدينة وسماها المهدية، كان ينزلها إذا أراد إبرام أمر وتجهيز جيش، ومنها إلى مراكش عشر مراحل، وهي من مراكش غربية جنوبيّة، ينظر: معجم البلدان:231/3 .

([22]) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب 2/ 355.

([23])المصدر نفسه: 2/ 355.

([24])ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: 2/ 356.

([25])المصدر نفسه: 2/ 246.

([26]) ريحانة الكتاب: 2/ 246.

([27])ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب:246- 248، وله في هذا الشأن ثلاث مقامات:2/ 246- 278.

([28])ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، لسان الدين: 2/ 304.

([29]) ينظر: معيار الاختيار: 43-45.

([30])ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: 2/ 279.

([31]) ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/279-280.

([32]) ريحانة الكتاب، لسان الدين :2/284-285 ، وله في هذا الشأن مقامات أخرى:2/ 285-286و293و304.

([33]) ينظر: خطرة الطيف،لابن الخطيب:16، ومعيار الاختيار، لابن الخطيب:33 .

([34]) ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/248.

([35])ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/249 -250 .

([36]) ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/ 252 – 253 ، وله في هذا الشأن مقامات أخرى:2/ 254 و 257 و 258 و 260 و 261 و 262 و 264 و 268 - 279 و 270.

([37]) ينظر: لسان العرب ،مادة (وزر):283/5.

([38]) الإشارة إلى أدب الوزارة، لابن الخطيب:33

([39])ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/340 - 341

([40]) ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/241 -242.

([41]) المصدر نفسه :2/ 242.

([42]) ريحانة الكتاب ، لسان الدين :2/ 353-354 .

المصادر والمراجع

1- أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع ، بحث الدكتور صفاء خلوصي، مجلة المعلم الجديد – العدد الأول،مج 25، كانون الثاني، شباط، 1962.

2- الإشارة إلى أدب الوزارة، لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق، د. محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر ،جميع الحقوق محفوظة للناشر ط1، 1424 هـ - 2004 م.

3- بديعيات الزمان، فيكتور الكك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط.

4- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار النهضة بمصر، القاهرة، د.ط.

5- الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.

6- ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب: لسان الدين بن الخطيب، حققه محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، المطبعة العربية الحديثة، ج1 ، ط1، 1400 هـ 1980م .

7- ريحانة الكتاب ونُجعة المُنتاب، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ،المطبعة العربية الحديثة، ج2، ط1، 1401هـ - 1981م .

8- لسان العرب، لابن منظور(630- 711هـ) اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، مؤسسة التاريخ العربي ،بيروت – لبنان ، ج1 ، ط3 ، 1419هـ - 1999م .

9- معجم البلدان: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ،المجلد الخامس، دار صادر – بيروت، 1397هـ 1977م .

10- معجم مصطلحات النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان الناشرون، بيروت، ط1، 2001م.

11- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس وآخرون، مكتبة لبنان ساحة الصلح، بيروت، ط2، 1984م.

12- المقامة البغدادية، د.رابح العوبي، دار الكتاب الثقافي،د.ط،د.ت.

13- المقامة ، شوقي ضيف وآخرون، دار المعارف ، مصر، ط3.

14- المقامات الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين، شاهر عوض الكفاوين، مكة المكرمة، جامعة الملك عبد العزيز، رسالة ماجستير، 2007م.

15- المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي (الحريري والحميدي خصوصا) ، د. فرح ناز علي، دار الكتب العلمية، ط1، 2011.

16- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، السعادة الكبرى، مصر، ج1، ط2، 1957م.